الفصل الثالث

# جوانب الشريف الرضى

## ١ ـ الشاعر العربى المجود

تظهر روح البداوة العربية عند الشريف الرضى فى مواضع غير قليلة من شعره . وهو وإن كان حضرى المولد والنشأة والمقام ، إلا أنه يحن إلى البداوة ؛ ولعله حنين إلى العروبة التى يجعل البداوة قالبها ومثالها . وقد كان تغنيه بالعروبة ردّ فعل للحركات غير العربية التى تجلت فى تقسيمات الدولة العباسية . فإذا أتاحت الظروف للترك والديلم ومن إليهم من الأجانب أن يظهروا ، فلا أقلّ من أن يكون العرب مسموعى الصوت فى وسط هذا الضجيج الهائل من الأعاجم المتحكمين فى الخلافة .

وينتهز الشريف الرضى كل مناسبة لإبراز الكيان العربى ممثلا فى قديم أمجاده . فإذا خلع بهاء الدولة البويهى على والد الشريف لقباً جديداً ، فإن الشريف يهنئ أباه ، ويعود بالفخر والشرف إلى قحطان وعدنان أصلى العرب ، فيقول :

فخرت قحطان أن كان لها ذو نواس وكلاع ورُعَيْنِ
شرَّفَ الأذواء فيها قبلنا كلُّ رحب الباع هطالُ اليدين
ثم ساوتها فَخاراً مضرٌ بِعُلاَ الطاهر ذى المنقبتين
شيمتا عزٍّ ومجد أغنتا عن أبى أحمد فينا والحسين

ويسمى نفسه وهو فى معارض صباه « بالفتى العربى » ، فيقول :

إنى لأكرم نفسى أن يقال : جنى على الفتى العربى الخُرَّد العُرُب!

ويرثى أمه الشريفة فاطمة بنت الناصر العلوية فيفتخر بآبائها (النازلين بعرعرة السنام من العلا ) :

من كل مستبق اليدين إلى الندى ومسـدِّدِ الأقوال والآراء
يُرجَى على النظر الحديد تكرُّما ويُهاب فى الإطراء والإغضاء
دَرَجوا على أثر القرون وخلفوا طـرقاً معبدة من العلياء

ويتمثل العربىَّ أمامه دائمًا ماضيًا مثل سيفه ، وإلا فإن آباءه ينكرونه ، فيقول :

إذا عربىٌّ لم يكن مثلَ سيفه مضاءً على الأعداء أنكره الجَدُّ

ويخرج إلى مكة فى قافلة ، فينظم قصيدة وهو بطريق نجد ، فيذكر الحِلَّة ، والقبيلة ، واستنباح الكلاب للقِرَى ، ورفاقه من البدو ، فيقول :

فمن حلة نجتابها وقبيلة نمـرُّ بها مستنبحين كلابهَا
ومن رفقة نجدية بدوية تقارضنا أشجانها واكتشابها

وقد أدرك الشريف بحقّ ما فى شعره من قيم عربية أصيلة ، وعَرَف ما فيه من جهود دبلغها لاختيار كرائم الألفاظ لكرائم المعانى ، وكان مدركًا تمام الإدراك لما بين ألفاظه ومعانيه من مواءمة وتساوق . فنراه يشير إلى هذا فى قصائده فى المناسبات المختلفة ، فيقول لأحد ممدوحيه من الوزراء واصفًا قصائده الغُرّ التى لا يهى نظامها :

وعندى لك الغرُّ التى لا نظامها يَهى أبداً ، ولا يبوخ شهابها
وعندىَ للأعداء فيك أوابدٌ لُعاب الأفاعى القاتلات لعابها

ويقول فى وصف إحدى قصائده فى خلال مدحه لأبيه :

قدها ، فغُرَّتُها من الكلِم الجنى وحجولُها من صنعة ومعانى

---

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٩٤٥.

هى نطفةٌ رقرقتُها من خاطرى بيضاءُ تَنْقع غلة الظمآن

ويقول واصفًا نظام قصائده :

وهأنذا أُبثُّك كل بيت رقيق النسج رقراق النظام

ويصف لنا معاناته حتى يوائم بين ألفاظه ومعانيه ، وهو يعاتب الخليفة الطائع . فيقول :

فاذهب كما ذهب الغمام رجوتُه فطوى البروق وضنَّ بالتهتان

أو بعد أن أدْمى مديحُك خاطرى بصقالِ لفظٍ أو طلاب معانى

وهذه المواءمة لم تفته وهو يلائم بين موضوع الشعر وعبارته، حتى يكون الكلام مطابقًا لمقتضى الحال . وهذه هى البلاغة فى الأداء . فقد أغرب بالألفاظ الغريبة غير المألوفة فى استعمال عصره ، حين رثى أستاذه اللغوى الهاشمى المنصورى . لأنه راعى هذه الناحية فى المرثى .

أما موسيقى الشعر فلم تفت الشريف الرضى حين كان ينظم . وقد كانت له أذن موسيقية تحس الاختلال فى سلك الشعر فتحاشاه . ودليلنا على ذلك ما نجده فى شعره كله من تناغم موسيقى جميل . على أن الحادثة الآتية تزيد هذا توكيداً . فقد مدحه أبو إسحاق الصابى بقصيدة نونية من الوزن المقيد الساكن ، مطلعها :

أبا كلُّ شىءٍ قيل فى وصفه حسَنْ إلى ذاك ينحو من كناك أبا الحَسَنْ

فأجابه عنها بقصيدة على رويّها دون وزنها (لأن ذلك الوزن المقيد لا يجىء فى الكلامِ إلا مقلقلا ، ولا النظمِ إلا مختلا[1]) . ومطلع قصيدة الشريف :

دع من دموعك بعد البين للدمن غدا لدارهمُ ، واليوم للظعَنِ

فقصيدة الصابى من البحر الطويل ، ورد الشريف عليها من البحر البسيط .

---

(١) ديوان الشريف الرضى ص ٩٤٥

ولنستمع إلى رأى بعض القدماء فى شعر الرضى وشاعريته . فالثعالبى يقول عنه فى اليتيمة : ( ثم هو أشعر الطالبيين ، من مضى منهم ومن غبر ، على كثرة شعرائهم المفلقين ، كالحمانى ، وابن طباطبا ، وابن الناصر وغيرهم . ولو قلتُ إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق) . وابن خلكان يعيد ما ذكره الثعالبى فى اليتيمة . والخطيب البغدادى يروى قول أبى عبد الله محمد الكاتب بحضرة ابن محفوظ : ( سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون : إن الرضى أشعر قريش . فقال ابن محفوظ : هذا صحيح ! وقد كان فى قريش من يجيد القول إلا أن شعره قليل ، فأما مجيد مكثر فليس إلا الرضى ) .

## ٢ ـ قلائد المديح

للمديح نصيب كبير فى ديوان الشريف الرضى ، فهو شىء يلفت النظر فى شعره . ويحق لك أن تقول :

ما كان أغنى شاعراً كبيراً ذا جاه ومجد من أهل البيت عن أن يُورد نفسه هذا المورد . ولو أنصف الزمان ، واستقام الدهر لكان الشريف الرضى أحقَّ أن يمدحه المادحون ، لا أن يطيل هو نَفَسَهُ فى مدح من لا يستحقون المدح . . .

على أن من ممدوحيه من ارتفعوا إلى مقام الأحقية بالمديح ، فهو يُبرز بمدحه إياهم القيم الرفيعة التى تستحق من الشعر التفاتة خاصة . وهذا هو المدح الصادق ، الذى لا يرجى منه ثواب ، ولا يُخشى من تركه عقاب . . .

ويعترف لنا الرضى نفسه بأنه كان « يهذب خواطره فى مدح اللئام » ، فتجىء المعانى صادقة فى حسنها ، ويجىء المدح نفسه كاذبًا . . . ويقول فى ذلك :

أُهذب فى مدح اللئام خواطرى ... فأَصْدُقُ فى حسن المعانى ، وأَكذب[1]

---

(١) أى أكذب فى المدح .

وهذا هو المدح المفتعل المصطنع الذى لم توح به محمدة ولا منقبة ، ولكن أوحت به مناسبات واعتبارات خاصة .

ولا نُبرّئ الشريف الرضى من بعض هذه الأمداح . صحيح أنه ربأ بنفسه عن أن يتكسب بشعره ، فقد كان كما قررنا من قبل أبيًّا أنوفًا لا يقبل شيئًا من أحد ؛ ولكنه كان يجعل مدائحه سلّمًا إلى المسالمة عند أصحاب السلطان ، ودريئة من أذاهم . وما كان مثل الشريف الرضى ليعزّ على الأذى من الأتراك أو البويهيين ؛ فقد رأينا أباه يُلقى به سجينًا فى إحدى قلاع فارس على يد عضد الدولة بن بويه . ولو أراد واحد من بنى بويه مثلا إيصال الأذى إلى الرضى لما عز ذلك عليه . ولكن شاعرنا كان كيسًا ، لبقًا ، عف اللسان ، حلو المجاملة . ولعله اتخذ مدائحه للحكام والخلفاء سببًا إلى أمان جانبه . . .

ولماذا كان الشريف الرضى يتحرق شوقًا إلى لقاء الخليفة الطائع ؟ أما كان يكفيه أن يشكره بقصيدة على موقفه الكريم من والده بعد إطلاقه من السجن ؟ فلماذا يمدحه بمثل هذا :

مولاى ! من لى أن أراك وكيف لى ... بحضور دارك والعدوُّ بمعزل

انظر إلىَّ ببعض طرفك نظرة ... يسمو بها نظرى ويُعرب مقولى

ولماذا يقول له بعد هذا من قصيدة :

غرضى بمدحك أن يطاوعنى عوجٌ بأيامى ويعتدل

ولماذا يقف منه موقف المتنبي من كافور ، فيقول :

أعيذ مجدك أن أبقى على طمع ... وأن تكون عطايا المواعيد !

ولماذا يقبلُ من الخليفة الطائع صلات من ثياب وورق ثم يمدحه ويشكره عليها ، مع أنه قال لشيخه الطبرى إنه لا يقبل من أحد شيئًا ، وإنه لم يقبل من أبيه قط شيئًا ؟ ثم لماذا يقول للطائع على مذهب شعراء التكسب :

نظرة منك تُرسل الماء فى عو ... دى وتمطى ظلى ، وتُنبت تربى

ما ترجَّيت غير جودك جوداً أيُرجَّى القطار من غير سُحبِ ؟

إن فى مثل هذا المديح شبهة التكسب ! فهل كان الرضىّ محاكيًا للقدماء فى هذا الميدان ؟

ويخيل إلى أن الرضى كان بارعًا فى اللعب على الخلفاء بالملوك ، وعلى الملوك بالخلفاء . . . فهو يقول للخليفة الطائع :

فإذا ما أراد قُـربى مليكٌ قلتُ : قُربى من الخليفة حَسْبى !!

ولا شك أن مدح الرضى للقادر بعد نكبة الطائع وعزله لم يكن له محل . وأنه كان لهدف مصلحىّ سياسىّ كما سلف القول فى الفصل الخاص بالخلفاء والأمراء .

لقد مدح الرضى من الخلفاء الطائع والقادر ، ومدح من بنى بويه شَرَف الدولة وبهاء الدولة — بل عمَّم بالمدح البويهيين جميعًا ، فقال :

أآل بويه ما نرى الناس غيركم ولا تشتكى للخلق لولاكمُ فَقْدا

ومدح من الوزراء ابن صالح ، والموفق وزير بهاء الدولة ، وابن حمد ، وابن خلف وغيرهم . ولكن أصدق مدائحه مالم تكن فيه رائحة المصلحة والمكسب السياسى ، بل فيه صدق العاطفة ، وحقيقة الشعور ، كمدائحه لوالده النقيب ، ولخاله أبى الحسين ، ومدائحه لأهل البيت عليهم السلام ، ومدحه لصديقيه الحميمين : الصابى ، وأبى الحسن البتىّ . . .

ومع عفة لسان الشريف الرضى وبعده عن العوراء لم يبرأ ديوانه من بعض الأهاجى الشديدة الموجعة ، كقوله فى آل محرق :

ولاحت لنا أبيات آل محرق بها اللؤم ثاوٍ لا يروح ولا يغدو

خيام قصيرات العماد ... كأنها كلابٌ على الأذناب مقعية رُبْد

وكقوله فى هجاء قوم :

مواقـد نيرانهم قـرةٌ وسربالُ طاهيهـم أبيض[1]
إذا حُركوا للمساعى أبَوا وإن أُنزلوا دار ضيم رضوا

وكقوله فى وصف مغن دميم :

تقذى بمنظره العيونُ إذا بدا وتنوء عند غنائه الأسماع
أبذاك نستشفى ومن نغماته تتولد الآلام والأوجاع ؟ !

ولكنه هجاء غير بذىء ولا مفحش ولا مقذع ، وإنما هو لون طريف من تصوير الناس حين نغضبُ عليهم فنقول أسوأ ما فيهم . . .

## ٣ ـ أسباب الفخار

للفخر دواع كثيرة ، فقد يفتخر المرء بآبائه ، وهو طريق قديم سلكه شعراء الفخر فى الأدب العربى ، وقد يفتخر بشجاعته أو جوده أو مضاء عزمه أو مجموعة من جماع الفضائل فيه . وقد نرى بعض الشعراء يفخرون بشعرهم وقوته وقيمته وحسن ديباجته ، كما فعل أبو تمام مراراً فى مثل قوله :

كما علم المستشعرون بأنهم بطاءٌ عن الشعر الذى أنا قارض

وقوله :

بقواف هى البـواقى على الدهـ ـر ولكن أثمانهن مواض

وقوله :

لا ذنب لى غير ما سيَّرتُ من غرر شرقاً وغرباً وما أحكمت من عقد

أو كما فعل ابن الرومى فى مثل قوله :

شعرى شعر إذا تأمله الإنـ سان ذو الفهم والحجا عبده

(١) هذا كناية عن البخل والفقر معا ، فلا يكون الطاهى أبيض الثوب إلا إذا لم يكن هناك نار ولا طبخ .

أو كما فعل المتنبي فى مثل قوله :

خليلى إنى لا أرى غير شاعر فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟

أو قوله :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشدا

ولقد رأينا الشاعر الرضى يبالغ فى افتخاره وزهوه بشعره إلى حد لم نألفه عند شاعر غيره ، فهو وإن كان يقول فى إحدى قصائده :

وما الشعر فخرى ولكنما أطـول به همة الفاخر

إلا أنه يعود فينسى ذلك القول ، ويجعل الشعر فخره ، بل يجعل نفسه أشعر الأمم فى مثل قوله :

كفاك بأن عرضك من طـروق العـار فى ذممى
وذلك عصمـة منى بحبل غيـر منجـذم
وحسبك أن يَفُـلَّ شَبَا ة هجوك أشعرُ الأمم !

وحين يضع نفسه فى موازين الموازنة بين شعراء العرب ، يرى نفسه تارة زهير بن أبى سلمى :

أنا زهير فمن لى فى زمانك ذا ببعض ما افترقت « عنه يدا هرم »

وتارة يرى أنه بزّ بشعره زهيراً ، فيقول :

بز زهيراً شعرى ، وهأنذا لم أرض فى المجد أنه «هرم » !

وتارة يعلن أنه لولا الحياء لجنّ بشعره شعر البحترى ومسلم بن الوليد ، فيقول :

شعر أثير به العجاج بسالة كالطعن يدمى والقنا تتحطم
وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم !

وتارة يقيس نفسه إلى البحترى وأبى نواس ، فيقول عن شعره :

وصلت جواهر الألفاظ فيه بأعراض المقاصد والمعانى
فجاءت غضة الأطراف بكرا تخير جيدها نظم الجمان
كأن أبا عبادة شق فاها وقبّل ثغرها الحسن بن هانى

وهكذا نقع فى ديوان الرضى على كثير من الفخر والافتتان بشعره ، والزهو به ، والاستعلاء به على كبار الشعراء ، والمبالغة فى تقديره إلى حد يراه أنه يرفع مراتب الممدوحين ، كقوله :

أبا قاسم ! جاءت إليك قلائد تقلد أعناق الرجال المناقبا

ولقد بالغ الشريف الرضى فى هذه الناحية من الفخر ، إلى حد أن أحد نقادنا ، قال عنه إنه خرج على قواعد الذوق حين قضت عليه الظروف أن يزهى بشعره ويختال [1] :

وقضت عراقة الأصول وشرف النسب الهاشمى على الشريف الرضى أن يفتخر — حين يفتخر — بجديه محمد عليه السلام ، وعلى بن أبى طالب ، فنراه يقول :

أعد لفخرى فى المقام محمدا وأدعو عليًّا للعلا حين أركب

أو يقول فى قصيدة أخرى :

المجد يعلم أن المجد من أربى ولو تماديت فى غى وفى لعب
إنى لمن معشر إن جمّعوا لعُلا تفرقوا عن نبى ، أو وصى نبى

أو يقول فى ثالثة :

أنا ابن نبى الله وابن وصيِّه فَخَارٌ علاَ عن نده وضريبه

فهو يجمع بين النبى وابن أبى طالب فى فخره . وقد يُفرد ، كقوله فى جده

---

(١) عبقرية الشريف الرضى . للدكتور زكى مبارك ج ١ ص ١٠٦ .

« على » قسيم النار[1] :

قسيم النـــار جَـــدِّى يوم يُلقى  به باب النجاة من العذاب

وقد يفتخر بآبائه جميعاً دون تخصيص ، فيقول :

أنا ابن السابقين إلى المعالى  إذا الأمد الطويل ثنى البطاء
إذا ركبوا تضايقت الفيافى  وعطل بعض جمعهم الفضاء...

وتارة يشير إلى أن آباءه هم بنو هاشم ، فيقول :

أنا ابن الأناجب من هاشم  إذا لم يكن نَجَبٌ من نُجُب

وطالما افتخر الشريف الرضى بنفسه وشجاعته ، كقوله ملتمساً لنفسه العذر من معاكسة الأيام :

ولولا صولـــــة الأيام دونى  هجمت على العلا من كل باب
ومن شيم الفتى العربى فينا  عنـــاق البيض والخيل العراب

أو افتخر بهمته ومضاء عزمه ، كقوله :

وما كُنت أجرى إلى غاية  فأسألها أين وجه الإياب
إذا استنهضت همى عزمة  عصفتُ بأيدى المطىِّ العراب

## ٤ ـ شاعر الحكمة والمثل

اشتهر المتنبى بالحكمة والمثل وسيرورتهما فى شعره ، ولعل اشتغال الدنيا به وبنقد شعره والموازنة بينه وبين غيره قد فسح المجال لاشتهار أمثاله . ويزدحم ديوان الشريف الرضى بكثير من الحكم والأمثال ، وإن كان الحظ لم يرزقها من الذيوع والانتشار ما رزق أمثال المتنبى . وعلى الرغم مما قاله بعض المقدرين لعبقرية الشريف من أن حكمه أقرب إلى الطبع من حكم المتنبى التى كان

(١) قسيم النار : هى تسمية للإمام على مأخوذة من قوله عن نفسه : ( أنا قسيم النار ) .

يتعمدها قصداً — على الرغم من ذلك فإن حكم الرضى لم تدر فى مجال الزمان مدار حكم غيره من الشعراء . ولعل الاهتمام الحادث فى زماننا بشعر الرضى وسيرته ، يتيح لأمثاله أن تنتشر على أوسع المقاييس ، ويخرجها عن نطاق الحبس الذى تعانيه فى ديوانه . . ذلك الديوان الذى لم يقدر لطبعته المحققة على يد الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد أن يظهر منها إلا جزء واحد بلغ قافية الباء .

وقد تتكاثر الحكم والأمثال عند الشريف الرضى فى قصيدة واحدة ، فتزدحم بها ، كما فى تعزيته لبهاء الدولة بن بويه عن ولده أبى منصور ، التى مطلعها :

كان قضاء الإله مكتوبا  لولاك كان العزاء مغلوبا

وكما فى تعزيته الخليفة عن عمر بن إسحاق بن المقتدر ، وهى قصيدة لامية مشحونة بالحكم والأمثال يقول فيها :

ومن نظر الدنيا بعين حقيقة  درى أن ظلا لم يزل سيزول
إذا لم يكن عقل الفتى عون صبره  فليس إلى حسن العزاء سبيل
ومن مات لم يعلم —وقد عانق الثرى—  بكاه خليل أم سلاه خليل

وكما فى مدحته للطائع التى يقول فيها :

وما صحبك الأدنون إلا أباعد  إذا قلّ مال أو نبت بك حال
ومن لى بخل أرتضيه وليت لى  يمينا يعاطيها الوفاء شمال
إذا عزنى ماء وفى القلب غلة  رجعت وصبرى للغليل بلال
أرى كل زاد ما خلا سدّ جوعة  تراباً ، وكل الماء عندى آل
نخف على ظهر الثرى وبطونه  علينا إذا حل الممات ثقال
وما نوب الأيام إلا أسنة  تهاوى إلى أعمارنا ونصال

ومن حكم الشريف الرضى المتناثرة :

تملى المقادير أعمارا وتنسخها ويضرب الدهر أياماً بأيام

قد يبلغ الرجل الجبان بماله ما ليس يبلغه الشجاع المعدم

ما الذنب للمزن جازتنى مواطره وإنما الذنب للأرزاق والقسم

سلّى عن العيش أنا لاندوم له وهوّن الموتَ ما نلقى من العلل

ولا تزرعوا شوك القتاد ، فإنكم جديرون أن تدموا به وتُشَاكوا

وما جمعى الأموال إلا غنيمة لمن عاش بعدى واتهام لرازق

والسيف إن مر على هامة روّعها إن هو لم يقطع

وكيف وفور العرض والمال وافر ومن يخزن الأموال يُنفق من العرض

لو كان حفظ النفس ينفعنا كان الطبيب أحق بالعمر

وكيف يتم فى بلد صلاة وكل بقاعه قِبَلُ الفجور ؟!

نالوا على قدر الرجاء ... وإنما يروى على قدر الأوام الصادى

إذا قلَّ مالى قلَّ صحبى ، وإن نما فلى من جميع الناس أهل ومرحب

وخلائق الدنيا خلائق مومس للمنع آونة وللإعطاء . . .

لا تجعلن دليل المرء صورته كم مخبر سمج عن منظر حسن

همُ نقلوا عنى الذى لم أفه به وما آفة الأخبار إلا رواتها

## ٥ ـ شاعر الدموع

يحس المتتبع شعر الشريف فى ديوانه أنه أمام شاعر كثير البكاء على الراحلين ، كثير التعزية لأصدقائه وأقاربه ممن فقدوا أحبابهم . وكثيراً ماتصادفنا عنده أمثال هذه العبارات : وقال يرثى فلاناً ، أو : وقال يرثى بعض إخوانه

ولا يُذكر الاسم، أو: وقال يعزى فلانًا، أو: وقال يعزى صديقًا له عن ولده — دون ذكر اسم الصديق — .

ولقد لفتت كثرة مراثى الشريف وامتلاؤها بالعاطفة نظر الذين أرخوا له، فالثعالبي يقول عنه: (ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفًا فى المراثى منه). وابن أبى الحديد يقول عنه: (وإن قصد فى المراثى جاء سابقًا والشعراءُ منقطع أنفاسها على أثره)، ويسميه زكى مبارك (الفنّى البكّاء)، ويعقد الدكتور إحسان عباس فصلا عنه بعنوان (النائحة الثكلى).

ولقد كان الشريف غرضًا لسهام الزمان ومحاربة الأيام ومعاكسة الظروف، وهو دائم الحزن والألم بما فعلته الأيام فى بيته — أعنى بيت الطالبيين — وفى أبيه حين صودر وحبس، وفى آماله حين تحطمت، ولهذا وجد فى الرثاء متنفسًا لأحزانه وإخفاقه فى الحياة؛ يضاف إلى هذا وفاؤه لمن يرثيهم وتحسره على فقدهم.

ولقد وجد الشريف فى مأساة الشهيد الحسين بن على عليه السلام منفرجًا آخر لهمومه، وتعبيراً عن آلام الشيعة، فنهج فى مراثيه للحسين منهجًا جديداً بالافتخار بأهل البيت وذكر قبورهم والتشوق إليها.

وتدور المعانى التى ينظمها الشريف فى سلك مراثيه، حول الحياة وغرورها، وازدحام القبور بالموتى، وملاقاة رميم الأواخر للأوائل:

قبر على قبر لنـا وأواخر ... يلقى رميم الأولين رميمها

ومشينا فى الحياة إلى آجالنا:

نخطو وما خطونا إلا إلى الأجل ... وننقضى وكأن العمر لم يطل

وعدم الجدوى من شكوى زمان نحن رهائن فى يده:

ولا تشكَّ[1] زمانا أنت فى يده ... رهن فما لك بالأقدار من قبل

(١) أصلها ولا تتشك بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا: أى لا تظهر الشكوى.

ونراه فى أغلب مراثيه يتمنى لو يقبل الموت فداء فيفدى مرثيه ، أو لو يُدفع الموت بقوة فيدفعه :

لو لوى عنك رائع الخطب ذب  أو رمت دونك الحمام يدان
لوقتك الردى نفـوس عـزيزا  ت وأيد مملوءة بطعـان !

ويقول فى أمه :

ما كنت أذخر فى فداك رغيبة  لو كان يرجع ميت بفداء

وتزداد مراثى الشريف حرارة وحزناً عميقاً وألما ممضّاً على قدر علاقته من الميت والتصاقه بمودته وصداقته، وهنا يعد لنا مآثر الفقيد وصفاته . ومن مراثيه الحارة قصائده فى رثاء أبى طاهر بن ناصر الدولة الحمدانى ، وبهاء الدولة البويهى ، وأمه الشريفة فاطمة ، والصابى ، والخليفة الطائع . ولم يكن الشريف يقنع فى رثاء بعض من يحبهم بقصيدة واحدة — كما جرى العرف بين الشعراء — ولكنه يظل يفيض ماء عينيه على المرثى فى أكثر من قصيدة كما فعل فى رثاء الصابى ، والطائع وغيرهما . . .

ولم يكن الشريف يلتمس الشهرة من ثاء الرجال المرموقين البارزين ، بل كان يرثى حتى المغمورين من أصدقائه ممن لم يشغلوا مناصب هامة ، أو يتسنموا مراكز عامة ، وما بعد ذلك وفاء للرجال .

## ٦ — غزليات الشريف وحجازياته

يقول ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة فى غزليات الشريف إنه ( إن قصد الرقة فى النسيب أتى بالعجب العجاب . . . ) . ويقول عنه الباخرزى صاحب « دمية القصر » : ( وإذا نسب انتسب رقة الهواء إلى نسيبه ، وفاز بالقدح المعلى فى نصيبه . . . ) .

وإذا كان شعراء المواسم فى الحجاز قد سجلوا لنا فى العصر الأموى شعراً غزلياً ظل يتناشده الركبان والرواة زماناً ، فإن القرن الرابع الذى عاش فيه الشريف

قد سجل لنا شعر أهذا الشاعر كان النسيب الحجازى باعثه .

ولقد أتاحت الظروف التى أحاطت بالشريف أن يخرج إلى الحج أميراً لحجاج المسلمين ، وهى إمارة كان يتقلدها والده بالأصالة ، وتقلدها هوكذلك. وفى هذه المواسم كانت تقع عين الشريف الرضى على الجمال البدوى غير المجلوب كجمال الحضارة . وكان قلبه يستجيب لهذا الجمال فيقف مبهوتًا أمامه ، ولا يجد من وسيلة إلا إرسال الشعر فيه .

ولم يستطع الرضى أن يقول فى حجازياته كل شىء ، كما لم يستطع أن يفعل فى سائر شعر الغزل والنسيب عنده . فشرفه ومكانه من أهل البيت ومركزه الدينى وتوليه نقابة الطالبيين كانت من معوقات الانطلاق فى الغزل عنده . فهو يتغزل ، ولكن فى تصون ، وينسب ، ولكن فى وقار . وقد تغلَّب الغزل عليه فى مقامات ليس فيها للغزل مجال . فنراه يتغزل فى بعض مدائحه لبهاء الدولة ابن بويه . ولعله هنا مقلد للقدماء سالك طرائقهم ، ولكن كلامه يكشف عن آثار حب ، وغزوات قلب .

وطوراً نراه ينسب فى مواضع الفخر ، كقوله :

يا دار ما طربت إليك النوق ... إلا وربعك شائق ومشوق
جاءتك تمرح فى الأزمَّة والبرى ... والزجر ورد ، والسياط عليق
وتحن ما جدَّ المسير كأنما ... كل البلاد محجر وعقيق
دار تملكها الفراق ، فرقها ... بالمحل من أسر الغمام طليق
شرقت بأدمعها المطى كأنما ... فيها حنين اليعملات شهيق
الآن أقبل بى الوقار عن الصبا ... فغضضت طرفى والظباء تروق
ولو انى لم أعط مجدى حقه ... أنكرت طعم العز حين أذوق
رمت المعالى فامتنعن ولم يزل ... أبداً يمانع عاشقا معشوق ...

ويحاول الشريف فى غزلياته أن يصور لنا قهره لشهوات النفس على ما بها

من لواعج العشق . فقد تضاجعه الحسناء والسيف دونها ، ولكن السيف أدنى الضجيعين إليه ؟ ! وما أبرع هذه الكناية عن العفة التى تصورها هذه الأبيات :

تضاجعنى الحسناء والسيف دونها ضجيعان لى ، والسيف أدناهما منى

إذا دنت البيضاءُ منى لحاجة أبى الأبيض الماضى فأبعدها عنى

وإن نام لى فى الجفن إنسان ناظر تيقظ عنى ناظر لى فى الجفن[1]

لقد كان الشريف الرضى فى صراع بين العقل والقلب ، وبين المجد والحب . وكان إنساناً يحب ويعشق ويصبو إلى الجمال فى عفاف ، قبل أن يكون نقيباً للأشراف أو أميراً للحج . . .

والحق أن قلب الشريف الرضى كان من تلك القلوب الرقيقة الحساسة التى تلتفت بالعيون إلى الحب مقبلة عليه ، ثم تتلفت حين تغيب عنها شخوص الأحباب أو طلولهم . . . وما أصدق تعبيره الرائع عن ذلك بقوله :

ولقد مررت على ديارهمو وطلولها بيد البلى نَهْبُ

فوقفت حتى ضج من لغب نضوى ، ولجَّ بعذلى الرَّكب

وتلفتت عينى ، فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب ! !

## ٧ ـ آخذ ومأخوذ منه . . .

ظهر الشريف الرضى بعد موت المتنبى بعقد أو عقدين من السنين ، وإذا شئنا الدقة قلنا إن الشريف ولد بعد وفاة أبى الطيب بخمس سنين . وكان اسم المتنبى فى طفولة الشريف ويفوعته وشبابه يملأ الدنيا ويشغل الناس . وكان

---

(١) الجفن : الأولى هى جفن العين ، والثانية هى غمد السيف .

شعر المتنبى يحفظه الناس وينشدونه ، ويجدون فيه المثل الجديد لفحولة الشعر العربى فى القرن الرابع . ولقد حفظ الشريف شعر المتنبى ونفذ إلى أعماقه وعرف ظروف نظمه كلها ، لم يخف عليه شىء منها . وأحب الرضى المتنبى وأحب شعره ، وأعجب بشجاعته وروحه التى تتمثل فيها روح « الفتى العربى » .

وتلفت نظرنا ظاهرة خاصة فى تقدير الشريف لشعر نفسه ، هى وتطاوله بالشاعرية على من سبقه من الشعراء . فقد رأى فى تقدير نفسه أنه لولا الحياء لأزرت فصاحته بالبحترى ومسلم بن الوليد :

وفصاحة لولا الحياء لهجنت أعلام ما قال الوليد ومسلم

ورأى أنه موازٍ للفرزدق وجرير فى الشاعرية حيث يقول فى وصف شعره :

وقصيدة عـذراء مثل تـألق الروض النضير
فرحت بمالك رقهـا فـرح الخميلة بالغدير
وكأنه فى رصفهـا جار الفرزدق أو جرير

ورأى نفسه موازيًا لزهير بن أبى سلمى مرة ، وأعلى منه مرة أخرى . ورأى نفسه فوق الشعراء جميعًا بدون تخصيص بذكر أسماء ، ولكنه لم يجرؤ مرة واحدة أن يقيس نفسه بالمتنبى أو يلز نفسه معه فى قَرَن . . . فهو يتهيب ذلك الرجل الذى أثر فى روحه كلها أثراً لا تكاد تخطئه وأنت تقرأ شعر الشريف ، فتقول : هذه روح المتنبى منبثة فى هذا الشعر للشريف .

وقد استطاع الشريف أن يأخذ شيئًا من معانى أبى الطيب الأصيلة الجياد ، ويتصرف فيها تصرفًا بارعًا خفيًا لا تهتدى إليه إلا العين البصيرة بالنقد والموازنة .

ولسنا هنا بصدد إحصاء المعانى التى أخذها الشريف من المتنبى وتصرف فيها بما ينفى تهمة السرقة الشعرية . ولا نستطيع أن نقول إنه من باب ( وقوع الحافر على الحافر ) ، أو من قبيل ( المعانى لقى فى الطريق ) . فإن القارئ

الواعى يدرك أن الشريف كان يضع المتنبى دائماً أمام عينيه وهو ينظم . . .

ورب قارئ يستعظم قولنا هذا على الشريف الرضى . ولكنا نقول إن الشريف لم يستطع أن يمنع نفسه من أخذ معانى أبى الطيب وتلقفها ببراعة ، بل أخذ يستعير منه بعض عباراته الخاصة به ، فإذا قال المتنبى لممدوحه :

أزل حسد الحساد عنى بكبتهم فأنت الذى صيرتهم لى حسدا

قال الشريف لممدوحه :

أزل طمع الأعداء عنى بفتكة فلا سلم إلا أن يطول قتال

وإذا قال المتنبى فى ممدوحه سيف الدولة : « على شروب للجيوش أكول »، قال الشريف :

نؤمل أن نروى من العيش ، والردى شـــروب لأعمـــار الرجال أكول

فسيف الدولة شروب للجيوش أكول . والردى شروب لأعمار الرجال أكول . فالشريف مولع بمحاكاة استعارة المتنبى ومسلكه فى التعبير . . .

وإذا قال المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

رأينا الشريف يقول :

ينال الفتى من دهره قدر نفسه وتأتى على قدر الرجال المكايد

وإذا كان المعنى هنا فيه مغايرة ، فإن مسلك التعبير وطريقة الأداء تكاد تكون واحدة فى الشطر الثانى من كل بيت . . .

ومن المعانى التى أخذها الشريف من المتنبى أو كان ناظراً إليه فيها قوله :

ما مقامى على الجـــداول أرجـــو ها لنيل وقد رأيت البحارا ؟

أليس الشريف كان متمثلا فى هذا قول المتنبى :

قواصـــد كافـــور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ونلاحظ أن الشريف لم تتسلل إليه بعض أساليب المتنبي وحده فى شعره ، ولكنا نرى فى بعض شعره أساليب خاصة ببعض الشعراء تتسلل إليه منهم . . . فقول الشريف يصف قصائده وهو يمدح أحد وزراء بهاء الدولة البويهى :

وعندى للأعداء فيك أوابد  لعاب الأفاعى القاتلات لعابها

مأخوذ شطره الثانى من قول أبى تمام فى وصف « القلم » : قلم محمد بن عبد الملك الزيات :

لعاب الأفاعى القاتلات لعابه  وأرْىُ الجنَى اشتارته أيد عواسلُ[1]

وقول الشريف :

إذا لم أنل من بلدة ما أريده  فما سرنى أن البلاد رحاب

مأخوذ شطره الأول من قول أبى فراس الحمدانى فى سيف الدولة :

إذا لم أجد فى بلدة ما أريده  فعندى لأخرى عزمة وركاب

ولاحظ هنا المحاكاة حتى فى الوزن والقافية ! !

وقول الشريف فى الوعيد :

والليث لا يخْرُج إلا  مُحْـرجا من الأجم

مأخوذ من قول أبى تمام :

أخرجتموه بكرهٍ عن سجيته  والنار قد تنتضى من ناضر السَّلَم

أوطأتموه على جمر العقوق ولو  لم يُحْرج الليث لم يَخْرُج من الأجم

وقول الشريف فى مرثيته للشهيد الحسين عليه السلام :

يا قتيلا قوض الدهر به  عمد الدين وأعلام الهدى[2]

---

(١) الأرى : العسل . واشتارته : جمعته.

(٢) هذا البيت من قصيدة للشريف مطلعها :

كربلا ! لا زلت كربا وبلا  ما لقى عندك آل المصطفى

وفى نسبتها للشريف كلام أثير ، وقيل إنها ليست له .

مأخوذ شطره الأول من قول جليلة بنت مرة تبكى زوجها « كليبًا » :

يا قتيلا قوض الدهر به سقف بيتيّ جميعاً من علِ

وليس يعيب الشريف أنه استحسن بعض معانى غيره فتصرف بها ببراعة، أو أنه تأثر ببعض عبارات غيره من الشعراء . ولقد كان هو نفسه غرضًا أخذ منه الشعراء بعده . فقد كان شاعرنا شوقى ينظر إليه ويضعه نصب عينه فى قصيدته التى رثى بها الطيارين العثمانيين : فتحى ونورى والتى مطلعها :

انظر إلى الأقمار كيف تزول وإلى وجوه السعد كيف تحُول !

فهذا التعبير الخاص بما فيه من أمر واستفهام أخذه شوقى من مطلع قصيدة الشريف التى يهنئ بها أباه بعد أن ردت إليه أعماله :

انظر إلى الأيام كيف تعود وإلى المعالى الغُرّ كيف تزيد

واستجاد شاعرنا محمود سامى البارودى استعارة الشريف وكنايته عن الزمارة أو الناى « بالبراع المثقب » ، فأخذها منه فى قوله يفتخر :

وما أنا ممن تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه البراع المثقب

وأصله من قول الشريف يفتخر أيضًا :

كأن تراجيع الحداة وراءها صفير تعاطاه البراع المثقب

وجمع صاحب كتاب « مهيار الديلمى وشعره »[1] طائفة مما أخذه مهيار من معانى الشريف الرضى أستاذه ، وفاته أن يشير إلى بيت مهيار الديلمى :

عمّموا بالشمس هاماتهم ومشوا فوق رءوس الحقب

فهو ملحوظ فيه قول الشريف يفتخر بآبائه الهاشميين :

تلاث برودهمُ بالرماح وتُلْوى عمائمهمْ بالشُّهبْ

---

(١) لمؤلفه الأستاذ على على الفلال طبع دار الفكر العربى .

## ٨ – دور الشريف فى تطور دراسة البيان

للشريف الرضى كتابان أحدهما فى « المجازات النبوية » وثانيهما فى مجازات القرآن عنوانه : « تلخيص البيان فى مجازات القرآن » كان لنا حظ تحقيقه والتقديم له بدراسة تحليلية طويلة[١].

ولقد وجد الشريف نفسه أمام مصدرين من مصادر البلاغة العربية ، أولهما معجز للعرب على فصاحتهم ، بل معجز للإنس والجن ، ولو اجتمعوا معاً على أن يأتوا بسورة من مثله . وهو القرآن الكريم الذى أنزل على محمد . وثانيهما فيه من معجزات البلاغة والفصاحة وجوامع الكلم ما جعله تالياً لكلام الخالق ، وفوق كلام المخلوقين[٢]. فنصب الشريف الرضى مسنون عزمه لخدمة هذين المصدرين المقدسين عند المسلمين والعرب ، وتتبعهما تتبع دارس لهما مفتون بهما ، ليكشف عما فى كل منهما من جمال التعبير ، وروعة البيان ، وسحر البلاغة ، ولطف المسلك ، ووضوح الحجة ، وإشراق الديباجة ، مما لم يَعْدُ أن يكون جارياً على سنن العرب فى تعبيرهم ، ولكنهم لا يرقون إلى مستواه مهما انقادت لهم أعنة الكلام ، وذلّت لهم أزمّة البيان .

والحق أنه لم يظهر قبل كتابى الشريف الرضى كتاب قائم بذاته فى مجازات القرآن والحديث ، فإن « مجازات أبى عبيدة » المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، لا يدخل فى باب المجاز بمعناه البيانى ومدلوله البلاغى المقابل للحقيقة عند علماء البيان ، ولكنه « المجاز » عنده بمعنى التفسير والشرح للكلمات ، فكأنه مجاز إلى فهم المعنى ، سواء أكان هذا المعنى وارداً على سبيل الحقيقة أم المجاز .

وكذلك إشارات الجاحظ وتلميذه ابن قتيبة إلى المجازات والاستعارات بالمعنى الاصطلاحى عند البيانيين لم تكن إلا لمعاً بيانية منثورة فى كتب « البيان والتبيين »

---

(١) نشر دار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٥ القاهرة .

(٢) لباب الآداب لأسامة بن منقذ . تحقيق المرحوم الشيخ أحمد محمد شاكر .

و « الحيوان » للجاحظ و « تأويل مشكل القرآن » لابن قتيبة ، ولم تأخذ ذلك المنهج القائم الكامل الذى سلكه الشريف الرضى فى كتابه عن مجازات القرآن .

وأما ما صنعه أبو عبيدة فى كتابه « غريب الحديث » وما صنعه أمثال ابن قتيبة، وابن الأنبارى ، وابن دريد ، والحضرمى ، والسلمى فلم يكن غير تفسير وشرح لغريب ألفاظ الحديث النبوى ، ولم يكن كشفاً عن مجازات الحديث ، ولا تجلية لوجوه البيان فيه من ناحية الحقيقة والمجاز ، ومن حيث التصريح والاستعارة .

ومن هنا كان كتابا الشريف الرضى فى مجاز القرآن والحديث أول عمل كامل ، ومنهج متكامل ألف لغرض واحد ، هو متابعة المجازات والاستعارات فى كلام الله ، وفى حديث رسوله سورة سورة ، وآية آية ، وحديثاً حديثاً . وهما يدلان على أن الشريف خطا أول خطوة فى التأليف العربى للكتابة عن مجازات القرآن والحديث كتابة مستقلة قائمة بذاتها ، لم تأت عرضاً فى خلال كتاب ، أو باباً من أبواب مصنف .

ويكشف الرضى عن استعارات القرآن وحقيقتها بأسلوب بيانى فنى مهد الطريق لأساوب الاصطلاحيين من علماء البيان بعد ذلك . ففى قوله تعالى : ( يوم يكشف عن ساق ) يشرح الشريف الرضى أنه لم يقصد ظاهر الكلام من الكشف عن الساق حقيقة ( وإنما المقصود أنه يكشف عن شدة من الأمر أو عن أمر عظيم . وأصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى معاناته والجد فيه ، شمر عن ساقه ، فاستعيرت الساق فى موضع الشدة ) .

ويجرى الشريف فى إجراء الاستعارات والمجازات القرآنية والنبوية على هذا النسق الذى لم يكن للناس عهد به . والكشفُ عن بيان القرآن والحديث يتطلب أن يكون الكاشف عنه ذا بيان قوى ، حتى تكون الوسيلة شريفة شرف غايتها. فلا يعقل أن يكشف عن بلاغة القرآن قاصر الباع فى البلاغة ، ضيق الذراع فى الفصاحة . ولذا كان الشريف الرضى أولى من يكشف عن بيان القرآن

والحديث ، فقد رزقه الله من سحر البيان ، وذلاقة اللسان ، ووضوح الحجة ما يقدره على النهوض بالعبء على أحسن الوجوه .

ولقد كان الإمام القرطبي المفسر فقيهاً ، فغلب عليه الفقه والأحكام فى تفسيره . وكان الثعلبي إخبارياً فغلبت عليه فطرته فى القصص ، وكان الفخر الرازى حكيماً فغلبت عليه الحكمة والفلسفة وهو يفسر كتاب الله . وكذلك كان الشريف الرضى فصيحاً بليغاً ذا بيان ، ونفوذ إلى أعماق الكلام ومرامى السهام ، فغلب ذلك عليه فى كتابيه عن مجازات القرآن والحديث .

ومن طريف ما نذكره هنا فى معرض المجازات القرآنية أن جمهور المسلمين على أن « المجاز » — المقابل الحقيقة — واقع فى القرآن . أما الظاهرية ، وابن القاص من الشافعية ، وابن خويز منداد من المالكية فينكرون وقوع المجاز فى القرآن . وشبهتهم أن المجاز غير الحقيقة ، فهو إذن كذب ، والقرآن منزه عن الكذب ، كما أن المتكلم لا ينصرف عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا ضاقت به الحقيقة ، أو عجز عن التعبير بها فيلجأ إلى التعبير بالاستعارة . وذلك محال على الله تعالى القادر ، المنزه عن العجز .

وقد رد على هذه الشبهة جماعة من المسلمين كان أسبقهم ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، ومن متأخريهم الإمام المفسر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ الذى يقول : ( وهذه شبهة باطلة . ولو سقط المجاز من القرآن سقط منه شطر الحسن . فقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة ، ولو وجب خلو القرآن من المجاز وجب خلوه من الحذف والتوكيد وتثنية القصص وغيرها )[1] .

فالشريف الرضى كان من جمهور المسلمين الذين رأوا وقوع المجاز فى القرآن ، ولم ينكره ، بل ذهب فى الكشف عن وجوهه كل مذهب ، ثم راح يكشف عنه فى الحديث النبوى أيضاً ، فكان بذلك أول رائد فى هذا الميدان .

وأسلوب الشريف الرضى فى الكشف عن مجازات القرآن والحديث

---

( ١ ) الإتقان للسيوطى . طبعة محمود توفيق سنة ١٣٥٢ هـ — جـ ٢ ص ٣٦ .

واستعاراتهما أسلوب عال متميز مشرق يفيض بالقوة والفهم وحسن الذوق والتمييز وصحة النقد . وتبدو شخصية الشريف مستقلة متميزة من خلال نقده . فهو يعتد بالرأى متى رأى فيه صحة واستقامة ، ويعدل عما يجانبه الصواب ، أو لا تؤيده شواهد اللغة المحتج بها . ففى بيان قوله تعالى : ( خلق الإنسان من عَجَل ) ، يقول : ( فأما من قال من أصحاب التفسير إن العَجَل ههنا اسم من أسماء الطين ، وأورد عليه شاهداً من الشعر ، فلا اعتبار بقوله ، ولا التفات إلى شاهده ، فإنه شعر مولد . . . ) والشاهد الذى أورده المفسرون الذين يخالفهم الشريف الرضى فى تفسيرهم هو :

والنبع فى الصخرة الصماء منبته  والنخل ينبت بين الماء والعَجَل

وفى مجاز قوله تعالى : ( والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ) ، يقول الشريف : ( . . . المعنى أنهم استقروا فى الإيمان ، كاستقرارهم فى الأوطان ؛ وهذا من صميم البلاغة ، ولباب الفصاحة . وقد زاد اللفظ المستعار ههنا معنى الكلام رونقاً . ألا ترى كم بين قولنا : استقروا فى الإيمان ، وبين قولنا : تبوءوا الإيمان ؟ وأنا أقول أبداً : إن الألفاظ خدم للمعانى ، لأنها تعمل فى تحسين معارضها ، وتنميق مطالبها ) . ومناداة الشريف الرضى على نفسه بقوله : « وأنا أقول أبداً » يحمل معنى قيامه بقضية البلاغة ، وخدمة الألفاظ للمعانى .

## ٩ ـ مؤلفات الشريف الرضى

تضيف المؤلفات التى تركها الشريف الرضى ثروة كبيرة إلى تلك المؤلفات العظيمة التى كانت من نتاج ذلك القرن الرابع الذى عاش فيه المترجم له من أمثال كتب الخوارزمى ، وابن العميد ، وبديع الزمان ، والصاحب بن عباد ، ويتيمة الدهر للثعالبى ، والصناعتين ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ، ورسالة الغفران للمعرى ، والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، ومحاضرات الأدباء

للأصبهانى ، والخصائص لابن جنى ، والتهذيب للأزهرى ، ومقاييس اللغة لابن فارس ، والصحاح للجوهرى ، والفهرست لابن النديم ، وتجارب الأمم لمسكويه ، وأمالى الشريف المرتضى شقيق شاعرنا ، والموازنة بين الطائيين للآمدى ، ونشوار المحاضرة للتنوخى ، والراضح فى اللغة لأبى بكر الزبيدى .

وتحتل مصنفات الشريف الرضى أسمى مكان فى لجج هذا البحر الزاخر . ونحن نورد هنا ثبتاً بما استطعنا الاهتداء إليه من كتبه مع تعريف وجيز بكل منها ينبه إليها ، ويدل عليها :

١ — نهج البلاغة ، وهو مما جمعه الشريف الرضى من كلام الإمام على ابن أبى طالب كرم الله وجهه . ولن نطيل القول فيما قيل من أن « النهج » هو من كلام الشريف الرضى نفسه ، وأنه ليس من كلام الإمام على ، فتلك قضية أحسن الدفاع فيها « ابن أبى الحديد » قديماً ، والأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد[١] حديثاً . وقد ذكر المؤرخ جرجى زيدان[٢] أن نهج البلاغة هو للشريف المرتضى — لا للشريف الرضى — مع أن الأخبار والآثار متطابقة على أن الكتاب هو للرضى . وقد أخذ زيدان بأوهن القولين فى هذه القضية ، ونقل عن صاحب وفيات الأعيان ، ولكنه لم ينقل النص كاملا ، ولا الكلام تاماً ، فاجتزأ من النقل بما يوهم أن نهج البلاغة للمرتضى ، وعبر عن ذلك بأنه المشهور ، مع أنه قول مرجوح . ولو أنصف جرجى زيدان لقال كما قال ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان : ( وقد اختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المجموع من كلام الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، هل هو جمعه أم جمع أخيه الرضى[٣] ) .

وقد نال نهج البلاغة كثيراً من الاهتمام به ، والتعليق عليه ، وحفظه ، وكثرة الشروح له ، حتى لقد أحصى صديقنا العلامة صاحب « الغدير » خمسة

---

( ١ ) مقدمة الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد لكتاب نهج البلاغة .

( ٢ ) تاريخ آداب اللغة العربية جـ ٢ ص ٢٨٨ .

( ٣ ) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ٤٢٣ — ٤٢٤ .

وسبعين شرحًا له[١]، منها شرح على بن الناصر المعاصر للشريف وهو أول الشروح وأقدمها ، وشرح البيهقى النيسابورى المتوفى سنة ٥٦٥ هـ ، وشرح ابن أبى الحديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ ، وشرح يحيى بن حمزة العلوى المتوفى سنة ٧٤٩هـ، وشرح الأستاذ محمد حسن نائل المرصفى من أهل زماننا ، وشرح الشيخ محمد عبده .

وللنهج شروح بالفارسية منها : « منهاج الولاية » للمولى عبد الباقى الخطاط الصوفى المتوفى سنة ١٠٣٩ هـ

٢ — المجازات النبوية . ويشتمل على وجوه البيان والمجاز والاستعارة فى ٣٦١ حديثًا نبويًا . وقد طبع فى العراق سنة ١٣٢٤ هـ ، ١٣٢٨ هـ ، ونشر فى مصر بتحقيق المرحوم الأستاذ محمود مصطفى المدرس بكلية اللغة العربية .

٣ — تلخيص البيان ، فى مجازات القرآن ، وكان مخطوطًا إلى عهد غير بعيد ، وقد نشر السيد محمد المشكاة مخطوطته المصورة على طريقة الفوتوتيب بإيران سنة ١٣٦٩ هـ ، وألحق به فهارس جليلة ضافية ، وكتب له مقدمة فى بضع صفحات ، كما كتب له الأستاذ حسين على محفوظ مقدمة فى ثمانى صفحات . وقد ألقى إلىّ قدر سعيد أن أقوم بتحقيق هذا الكتاب والتقديم له والتعليق عليه ونشره بدار إحياء الكتب العربية سنة ١٩٥٥ تعويلا على نسخة مصورة تفضل بإهدائها إلىّ صديقى العالم الفاضل المرحوم الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى الأستاذ بجامعة القاهرة سابقًا . ولم تكد تمضى أشهر على طبعتى المحققة حتى ظهرت طبعة جديدة من منشورات مكتبة الخلانى العامة على نفقة الحاج محمد جواد الكاظمى ، مع مقدمة للسيد مكى السيد جاسم ببغداد سنة ١٩٥٥ يقول فيها إن الطبعة الجديدة عن نسخة أتم من التى عولتُ عليها ، وقد قال ابن خلكان عن هذا الكتاب : إنه جاء نادراً فى بابه .

٤ — ديوان شعر الشريف الرضى ، جمعه أبو حكيم الخبرى[٢] ( بفتح

---

(١) الغدير جـ ٤ ص ١٦٩ .

(٢) عند جرجى زيدان أنه الخيرى باليا المثناة التحتية ، وهو تحريف مطبعى .

الخاء المعجمة وسكون الباء الموحدة التحتية ) المتوفى سنة ٤٧٦ هـ ، ومن العجائب أن الشيخ عبد الحسين الحلى فى ترجمته للشريف الرضى فى مقدمة الجزء الخامس « من حقائق التأويل » ذكر أنه لا يعرف من هو أبو حكيم الخبرى هذا ، ومتى كان وما اسمه ؟ وقد صحح صديقنا العلامة الشيخ عبد الحسين الأمينى النجفى هذا ، وأورد للخبرى ترجمة وجيزة فى الجزء الرابع من « الغدير » ص١٧٦ . وقد طبع الديوان فى بمباى أولا سنة ١٣٠٦ هـ ، فى ٥٤٩ صفحة ، وطبع فى بيروت بعد ذلك بعام بشرح الشيخ أحمد عباس الأزهرى ومحمد اللبابيدى فى جزأين تبلغ صفحاتهما ٩٨٦ صفحة ، وأعادت دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة سنة ١٣٦٨ هـ نشر هذا الكتاب محققاً ومشروحاً بقلم الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد ، ولكن لم يظهر منه إلا الجزء الأول فى ٤٨٠ صفحة حيث قافية الباء ، ويظهر أن أموراً تحول دون إتمام هذه الطبعة التى بذل فيها محققها الفاضل كثيراً من الجهد .

٥ ــ خصائص الأئمة . وقد أشار إليه الشريف نفسه فى مقدمته لكتاب نهج البلاغة ، وذكر أنه بدأ تأليفه فى عنفوان السن وغضاضة الغصن ، وأنه يشتمل على محاسن أخبار الأئمة وجواهر كلامهم ، فلما فرغ من الخصائص التى تخص الإمام علياً كرم الله وجهه ، عاقته عن إتمام الكتاب محاجزات الزمان ، ومماطلات الأيام . والظاهر مما كتبه الشريف الرضى فى تلك المقدمة أن خصائص الأئمة لم يتم تأليفه ، وأن نهج البلاغة هو فصل من فصول خصائص الأئمة . ويذكر صاحب الغدير أن عنده منه نسخة ، ويعجب مما قاله الشيخ عبد الحسين الحلى من أنه توجد فى العراق نسخ باسمه ، تشبهه فى المنهج ، ولكن لم تصح نسبتها . . .

٦ ــ حقائق التأويل ، فى متشابه التنزيل ، ويشير الرضى إليه كثيراً فى المجازات النبوية ، وفى تلخيص البيان فى مجازات القرآن ، فيسميه تارة بالكتاب الكبير ، وتارة باسم حقائق التأويل ، وثالثة يسميه : الكتاب الكبير فى متشابه القرآن . وقد أسماه النجاشى حقائق التنزيل ، كما أسماه صاحب عمدة

المطالب : كتاب المتشابه فى القرآن . وقد نشر من هذا الكتاب جزؤه الخامس ، وهو الذى عثر عليه منه ، مع مقدمة جيدة للشيخ عبد الحسين الحلى .

والكتاب تفسير للقرآن ، فهو غير تلخيص البيان الذى يكشف عن وجوه الاستعارة والمجاز فى كتاب الله . وتظهر شخصية الشريف فى هذا الكتاب قوية كالعهد بها فى تلخيص البيان ، فهو يناقش الآراء ، ويرد على المخالفين فى ثقة وقدرة وبيان .

٧ ــ معانى القرآن . ذكره ابن شهراشوب فى « المعالم » ، وقال عنه إنه يتعذر وجود مثله . وقال عنه ابن خلكان فى الوفيات « إنه صنف كتاباً فى معانى القرآن الكريم يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه فى علم النحو واللغة » . ويتجه بعض المحققين إلى أن هذا الكتاب هو بعينه « حقائق التأويل » .

٨ ــ الحسن من شعر الحسين ، وقد ذكر ذلك فى ديوانه المطبوع ببيروت سنة ١٣٠٧ هـ ، ونقل ذلك المستشرق آدم متز فى كتابه « الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » . وقد كان الشريف الرضى صديقاً للحسين [١] أبى عبد الله ابن الحجاج الشاعر الماجن الظريف المتوفى سنة ٣٩١ ، فاختار من شعره ما طبع بالحسن والجودة والصنعة والرقة ، ونفى ما لا يليق نشره . ولقد رثى الرضى صديقه ابن حجاج برثية رقيقة ووصفه بأنه كان خفة روح الزمان . وعجيب أن يختار الشريف لهذا الشاعر الماجن ، ولكنه معذور ، فقد كان ابن حجاج ــ كما يقول عنه الثعالبى ــ : ( تستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رقته وقذعه ) . ولعل الثعالبى كان يقصد بالمحتشمين الشريف الرضى وأضرابه ممن تجلهم أحسابهم وأقدارهم ومناصبهم عن احتمال المجون .

٩ ــ رسائل الشريف الرضى ، وقد جمعها معاصره وصديقه الحميم أبو إسحاق الصابى كما جاء فى الفهرست لابن النديم . وقد ذكره صاحب عمدة

---

(١) فى يتيمة الدهر اسمه : الحسن . والصواب أنه الحسين ، كما فى ابن خلكان ، والأعلام لخير الدين الزركلى ، والغدير جـ ٤ ص ١٧٥ .

المطالب . ويقع فى ثلاثة مجلدات وإن كان سرًّا مطويًّا فى ضمير الغيب . وأظنه غير ( نسخ المكاتبات من النظم والنثر الجارية بين الشريف والصابى ) التى يوجد مخطوطها فى مكتبة الأستاذ المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب .

١٠ ــ أخبار قضاة بغداد ، وقد ذكره له ابن عنبسة الحسنى الداودى المتوفى سنة ٨٢٩ هـ ، ولا نعرف عنه شيئًا ، وذكره صاحب الغدير فى ثبت مؤلفاته .

١١ ــ سيرة والده المتوفى سنة ٤٠٠ هـ ، وقد بدأ به حياته فى التأليف سنة ٣٧٩ هـ ، فهو من أول ما صنف ، وكانت سنه حين ألفه عشرين عامًا ، وهو مما ذكره الحسنى صاحب « عمدة المطالب ، فى مناقب آل أبى طالب » .

وقد ذكرت له بعض المصادر الشيعية كتبًا أخرى ، مثل تعليقه على خلاف الفقهاء ، وتعليقه على كتاب الإيضاح لأبى على الفارسى ، ومختار شعر أبى إسحاق الصابى ، والزيادات فى شعر أبى تمام .

أما كتاب « طيف الخيال » ، فقد ذكر جرجى زيدان أنه مما ينسب إلى الشريف الرضى فى مكتبة الأسكوريال . والحق أنه لأخيه الشريف المرتضى ، وقد نشر أخيراً فى مجموعة « تراثنا » بتحقيق صديقنا الشاعر المحقق الأستاذ حسن كامل الصيرفى .

أما ما ذكره جرجى زيدان أيضًا من أن للشريف الرضى كتاب « انشراح الصدر ، فى مختارات من الشعر » ، فهو غير دقيق تمام الدقة ، لأن انشراح الصدر هذا ليس إلا منتخبات من شعر الشريف الرضى ، اختارها بعض الأدباء كما يذكر حاجى خليفة فى « كشف [1] الظنون » وهو يتحدث عن ديوان الشريف الرضى .

---

(١) كشف الظنون جـ ١ ص ٥١٣ طبع بولاق .